المدائح النبوية والبديع

الدكتورة مناهل فخر الدين فليه
مدرس

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

المديح النبوي فن ادبي رفيع؛ لانه يعبر عن النوازع الروحية والعواطف الدينية. ولا ريب في ذلك فالنوازع والعواطف لا تصدر الا عن قلوب مؤمنة صادقة. وقد حفل النظم العربي بهذا الفن قديماً وحديثاً وعرفت قصائده بالمدائح النبوية.

وللمدائح تأريخ عريق، فقد عرفت في حياة الرسول محمد — صلى الله عليه وسلم — وامتدّت بامتداد ذلك الزمن وإلى عصرنا هذا. وان نظماً بهذا العمر وهذه الحياة حريّ بأن يدرس، وان تكون تلك الدراسة تحليلية مستفيضة لتأتي بنتائج علمية دقيقة يفيد منها الباحثون وطلاب الادب. فوددت ان أسهم هنا بجانب من هذه الدراسة، ونحن نستقبل القرن الخامس عشر الهجري، عليّ أضيف علامة جديدة إلى علامات فضل الرسول الكريم على الحياة العلمية العربية والاسلامية، فتتبعت المديح منذ عصر الرسول حتى الآن ثم بيّنت أثر هذا المديح في البلاغة ولا سيما البديع منها؛ وذلك لان المدائح صارت في العصور المتأخرة مصدراً من مصادر الدرس البديعي، بل هي المصدر الرئيسي لعلم البديع. حتى عرفت بالبديعيات. ولم اجد بين الباحثين من نهج هذا النهج، في بحث هذا الموضوع، فالدكتور زكي مبارك بحث المدائح (١) ولكن بحثه ادبي بعيد عن علم البديع. والدكتور احمد ابراهيم موسى قد افاض في الكلام عن البديعيات (٢) لكن كلامه يفتقر إلى الروح الادبية، وعليه فقد قرّ في نفسي ان أبحث المديح النبوي والبديع في ظل الادب والعلم، متوخية الايجاز المفيد لمن يريد التوسع في هذا المجال.

كان المديح النبوي لا يختلف من حيث سماته العامة عن أي مديح آخر، كانت قصيدة مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — تستهل بالنسيب، فالشكوى وبيان حاجة النفس التي تدفع بصاحبها إلى الرحلة من اجل بلوغها. ثم يأتي ذكر الناقة وهي واسطة النقل وعدّة الشاعر، يشخّصها ويجاذبها اطراف الحديث، يتخلص بعدها إلى الممدوح، فيعدد صفاته ومناقبه. وهذا ما نلحظه وبوضوح في ابيات الشاعر الجاهلي الاعشى (٣) التي قصد بها مكة، ليسمعها الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومطلعها :

---

(١) في كتابه «المدائح النبوية في الادب العربي».

(٢) في كتابه «المصبغ البديعي».

(٣) ميمون بن قيس، من أوائل شعراء المديح، راجع : الأغاني ٩/١٠٤ — ١٢٣.

ألم تغتمض عيناك ليلة ارمدا ... وعادك ما عاد السليم المسهّدا
وما ذاك من عشق النساء وانما ... تناسيت قبل اليوم خُلّة مهددا
ولكن ارى الدهر الذي هو خاتر ... اذا اصلحت كفاي عاد فأفسدا
شباب وشيب وافتقار وثروة ... فللّه هذا الدهر كيف ترددا
وما زلت ابغي المال مذ أنا يافع ... وليداً وكهلا حين شبت وأمردا
الا أيهذا السائلي : اين يممت ... فإنّ لها في اهل يثرب موعدا
فآليت لا أرثي لها من كلالة ... ولا من حفيّ حتى تزور محمدا
متى ما تناخي عند باب ابن هاشم ... تريحي وتلقى من فواضله يدا
نبيّ يرى ما لا ترون وذكره ... اغار لعمري في البلاد وانجدا
له صدقات ما تُغبّ ونائل ... وليس عطاء اليوم مانعه غدا (١)

إن ما يميز المديح النبوي هنا هو التصريح بذكر النبوة «نبيّ يرى ما لا ترون» ولولاه لوضعت القصيدة في عداد قصائد المدح التي مجّدت شيوخ القبائل واشرافها. وكان الاعشى قد سمع بظهور النبي فأزمع الرحلة إليه مسترفدا كما يسترفد رأس القبيلة لا ليسلم على يديه، ولهذا ما ان اعترضه ابو سفيان في الطريق، وقال له : «هل لك في خير مما هممت به؟» قال : وما هو؟ قال : تأخذ مائة من الابل وترجع إلى بلدك» حتى قال : ما اكره ذلك، فأخذها وانطلق آيباً إلى بلده (٢).

وهناك شيء آخر يعترض سبيل اسلام الاعشى، ذلك هو اصراره على الحياة الجاهلية بما فيها من متع سيئة حرّمها الاسلام كالزنا والقمار والخمر (٣).

وهكذا كانت ابيات الاعشى تفتقر إلى الصدق، وتضيع في خضم الصور المأثورة للمديح التكسبي الذي كان ابن بجدته في العصر الجاهلي .

وتشكلّ لامية كعب بن زهير (٤) في مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — نقطة انطلاق في تاريخ المدائح النبوية، اذ اتخذت من المديح موضوعاً لها وبلغ عدد

---

(١) الديوان ص ٤٥ .
(٢) الأغاني ٩/١٢٣ .
(٣) المرجع السابق.
(٤) الأغاني ١٧ /٣٨ — ٤٣ .

ابياتها ثمانية وخمسين بيتاً، وهي مع ذلك لم تسلم من تقاليد القصيدة الجاهلية، من حيث استهلالها بالنسيب :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيّم إثرها لم يُفدَ مكبول
وما سعاد غداة البين اذ رحلوا الا اغنّ غضيض الطرف مكحول

ثم يبادر كعب إلى طلب عفو الرسول لتأخر اسلامه ولوم اخيه بجير حينما اسلم قبله فيقول :

فقلت خلّوا سبيلي لا أبا لكم فكلّ ما قدّر الرحمن مفعول

ويقول :

أنبئت ان رسول الله أوعدني والعفو عند رسول الله مأمول
مهلا هداك الذي اعطاك نافلة القرآ ن فيها مواعيظ وتفصيل
لاتأخذني باقوال الوشاة ولم أذنب وان كثرت في الاقاويل

ينتقل بعد ذلك إلى المديح فيقول :

إن الرسول لنور يستضاء به وصارم من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما اسلموا زولوا
زالوا فما زال انكاس ولا كشف عند اللقاء ولا ميل معازيل
شُمّ العرانين ابطال لبوسهم من نسج داؤد في الهيجا سرابيل

ويسترسل كعب في بيان صفات الرسول — صلى الله عليه وسلم — وصحابته الكرام، مشيراً إلى قوتهم وتماسكهم، ذاكرا الله — تعالى — والقرآن، وفي هذا احساس بالدين وبالاسلام، لكنه احساس من رأى نفسه هالكاً تقطعت به الأسباب، ولا نجاة له إلابهذا الدين، إذ أن اعداءه قد أرجفوا به والرسول غاضب عليه فهو مقتول، فأشفق على نفسه وقصد المدينة يستأمن الرسول تائباً مسلماً. وهنا نتبيّن أن مديح كعب كان وسيلة إلى الاعتذار والنجاة من الموت. وعلى أية حال فإن لامية كعب امتلكت قيمة أدبية، فقد اتسمت بالقوة مع الوضوح والاشراق، تضاف إلى قيمتها الروحية والتأريخية، كل ذلك جعلها موضع اهتمام الشعراء، قال فيها أبو جعفر الالبري : «ولم تزل الشعراء من ذلك الوقت إلى الآن ينسجون على منوالها، ويقتدون بأقوالها تبركاً بمن انشدت بين يديه» (١).

(١) نفح الطيب ١/ ٩٣٢ .

ويتسلّم حسان بن ثابت شاعر الرسول – صلى الله عليه وسلم – راية هذا الفن فيمدح الرسول ويقارع خصومه ، مبهوراً بجلال دعوته مدافعاً عن عقيدته ، وهو في ذلك جار على الطرائق الجاهلية ، يستهل قصيدته بذكر الديار المقفرة ، فالنسيب والخمريات ثم ينتقل إلى تهديد خصوم الاسلام وهجائهم حتى يصل إلى مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهذه أبيات من قصيدته الهمزية (١) تحقق ماذكرنا :

عفت ذاتُ الاصابع فالجواءُ ... إلى عذراء منزلها خلاءُ
فدع هذا ولكن من لطيفٍ ... يؤرقني إذا ذهب العشاء
لشعثاءَ التي قد تيمّتته ... فليس لقلبه منها شفاء

... ...

عدمنا خيلنا إن لم تروها ... تثير النقع موعدها كداء
فأما تعرضوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاء
وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... يعزّ الله فيه من يشاء
وجبريل أمين الله فينا ... وروح القدس ليس له كفاء
وقال الله : قد أرسلت عبداً ... يقول الحق إن نفع البلاء
شهدتُ به فقوموا صدّقوه ... فقلتم لا نقوم ولا نشاء

....

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوّف نخبٌ هواء
هجوت محمداً فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفءٍ ... فشركما لخيركما الفداء
هجوت مباركاً برّاً حنيفاً ... أمين الله شيمتُه الوفاء
فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء
فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

اننا نلمح في هذه الأبيات صدق حسان في حبه للرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو ينعته بالبرّ والتقوى والامانة والوفاء ، ويبلغ هذا الحب ذروته في البيت الأخير ، حينما

---

(١) الديوان ص ٩ .

يفتديه بعرضه وبأبيه وجدّه وجزاؤه في ذلك عند الله – تعالى – انه حب خالص لوجه الله ، ولكن قد يخبو وهج هذا الحب حينما تغلب على حسان العصبية ، فيتخذ من مدح الرسول وأهله وسيلة إلى ملاحاة الاعداء ، كما فعل في قصيدته العينية (١) يرد فيها على الزبرقان قائلا :

أعفّة ذكرت في الحي عفّتهم ... لا يطمعون ولا يرديهمُ الطمعُ
كم من صديق لهم نالوا كرامته ... ومن عدو عليهم جاهد جدعوا
أعطوا نبيّ الهدى والبر طاعتهم ... فما ونى نصرهم عنه وما نزعوا
أكرمْ بقومٍ رسولُ الله قائدهم ... إذا تفرقت الاهواء والشيع
فإنهم أفضلُ الاحياء كلّهم ... إن جدّ بالناس جدّ القول أو شمعوا

ويمدح حسان ملامح الرسول – صلى الله عليه وسلم – الجسمية كما مدح اخلاقه ، فقال :

واحسن منك لم تر قطّ عيني ... واجمل منك لم تلد النساء

وهذه بذور المدائح النبوية التالية لعصر حسان .

وتوفي الرسول – صلى الله عليه وسلم – وحزن حسان لوفاته أشد الحزن ، واكتست مدائحه (٢) باللوعة والأسى ، ولولا الروح الديني المتجلي في تلك القصائد كذكر الرسول والآيات والمنبر والمسجد والمصلي والوحي لتوهم القارىء بأنها مراث قيلت في حبيب ، أجرى فقده سخيّ الدمع ، وشف فراقه الكبد ، ومن ذلك قوله (٣) :

بطيبة رسمٌ للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتهمدُ
ولا تنمحي الآيات من دار حرمة ... بها منبر الهادي الذي كان يصعد
وواضح آياتٍ وباقي معالم ... وربع له فيه مصلي ومسجد
معالم لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى فالآي منها تجدّد
ظللت بها أبكي الرسول فاسعدت ... عيونٌ ومثلاها من الجفن تسعد
تذكّرُ آلاء الرسول – وما أرى ... لها محصيا – نفسي فنفسي تبلّدُ
مفجعة قد شفّها فقد أحمدٍ ... فظلّت لآلاء الرسول تعدد

---

(١) الأغاني ٤/١٥٣ . ١٥٤ ، الديوان ص ١٤٥ وفيه : شمعوا بمعنى مزحوا .
(٢) المدائح اصطلاح عرفت به قصائد مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – سواء نظمت في حياته أو بعد وفاته .
(٣) الديوان ص ٥٤ .

وفي غمرة هذا الحزن لم ينس أن يصور حزن صحابة رسول الله عشية تشييعه ودفنه وقد وهنت منهم الظهور ، فقال :

لقد غيّبوا حلماً وعلماً ورحمة ... عشيّة علّوه الثرى لايوسّد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيّهم ... وقد وهنت منهم ظهور واعضد
يبكّون من تبكي السموات يومه ... ومن قد بكته الارض فالناس أكمد
وهل عدلت يوماً رزيّة هالك ... رزية يوم مات فيه محمد؟

بعد ذلك واني العصر الاموي ، وفيه بدت على فن المدائح ملامح سياسية ومذهبية، فقد اتخذه الشعراء وسيلة لنصرة اولياتهم من اهل البيت ولتسفيه اعدائهم ، والكميت يأتي في مقدمة هؤلاء الشعراء، ومدائحه لبني هاشم مشهورة ، تقوم على تعداد صفاتهم الحميدة وتنطوي ايضاً على ذم بني امية . وهذه ابيات (١) له تمثل هذا الاتجاه :

من لقلب متيّم مستهام ... غير ما صبوة ولا احلام
بل هواي الذي أجنّ وأبدي ... لبني هاشم فروع الانام
للقريبين من ندى والبعيدي ... ن من الجور في عرى الاحكام

ويسترسل في ذكر شمائل الهاشميين حتى يميزهم عن سادة الامويين، قائلا :

لا كعبد الملك او كوليد ... اوكسليمان بعد او كهشام

واظن ان حب الكميت لبني هاشم مصدره حب الرسول – صلى الله عليه وسلم – فهو ينعطف اليهم لانهم اهله وقرابته، معتقداً ان هذا الحب يقربه من الله، اذ يقول (٢) :

طربت وما شوقاً إلى البيض اطرب ... ولا لعبا مني أذو الشيب يلعب؟
إلى النفر البيض الذين بحبّهم ... إلى الله فيما نالني أتقرب
بني هاشم رهط النبيّ فانني ... بهم ولهم أرضى مراراً واغضب

ونراه يقرب من حسان ويتأثره مقتدياً الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله :

فدىً لك موروثاً أبي وابو ابي ... ونفسي ونفسى بعد بالناس اطيب

ثم يقول :

حياتك كانت مجدنا وسناءنا ... وموتك جدع للعراقين موعب
فبوركت مولودا وبوركت ناشئاً ... وبوركت عند الشيب اذ انت اشيب
وبورك قبر انت فيه وبوركت ... به وله اهل لذلك يثرب

(١) هاشميات الكميت ص ٤ .
(٢) هاشميات الكميت ص ٢٧ .

ويتابع حسان ايضاً في بيان خلق الرسول الكريم ، قائلا :

لقد غيبوا برّا وصدقاً ونائلا عشيّة واراك الصفيح المنصب

وعلى منوال الكميت نسج شعراء بني امية مدائحهم . وانقضى ذلك العصر واعقبه العصر العباسي ، وفيه لمعت اسماء عدد من شعراء المديح ، من امثال دعبل الخزاعي والشريف الرضي ومهيار الديلمي ، وقد قامت مدائحهم على حب اهل البيت وغمز من اغتصب الخلافة منهم ، من الامويين والعباسيين . وبدت على بعض تلك المدائح سمات التصوف والزهد. وهذا دعبل يقول بتفجّع واسى في ابيات (١) من تائيته المعروفة :

مدارسُ آيات خلت من تلاوة ومنزلُ وحي مقفر العرصات

لآل رسول الله بالخيف من منىً وبالركن والتعريف والجمرات

ويستوقف دعبل صاحبيه – على عادة الشاعر الجاهلي – ليسأل الدار التي خف أهلها عن ماضي عهدهم ، فيقول :

قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات

واين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين في الآفاق مفترقات

هم أهل ميراث النبي إذا اعتزوا وهم خير قاداتٍ وخيرُ حماة

... ...

ملامك في أهل النبي فإنهم أحياي ماعاشوا وأهل ثقاتي

وللشريف الرضي قصائد جياد في مدح الرسول – صلى الله عليه وسلم – وآله الأخيار ، اصطبغت بصبغة سياسية ، ندد فيها بالامويين والعباسيين .

ومازال هذا الفن حتى وافى العصر المملوكي ، وفيه تغيرت سمة المدائح ، وذلك لتأثر نزعات الشعراء بأحوال عصرهم ،ذلك العصر الذي برزت فيه ظاهرة التصوف ، ولعل الدافع اليه ظروف البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية (٢) ، أحاقت بها واحدثت تناقضاً في مجتمعها ، من ذلك ، ضربات التتار والصليبيين والتي استهدفت الدين الاسلامي

---

(١) شعر دعبل بن علي الخزاعي ص ٧١ .

(٢) راجع : المقريزي في (السلوك ٣٨٣/٣ ، ٣٣٩/٤) .

والحضارة العربية ، وعجز بعض أمراء المماليك عن تدبير أمور الدولة لضعفهم أو لانغماسهم في الملذات ، مما اطمع الكثير في السلطة ، واشتد التطاحن من جراء ذلك وكثرت الفتن وتعطلت الاعمال وانتشر الفقر وشاع الجهل وتفشت الاوبئة ،وعلت أقليّة حاكمه على رعية معدمة ، فهرع الناس إلى الله يلوذون بحمايته وينشدون لديه الخلاص من واقع فاسد انزل الحيف بهم ، واستأنسوا بسيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم – واقبلوا عليها قراءة ونظماً ليستلهموا منها الخلق الاسلامي الذي يعينهم على تحمل مشاق الحياة . اضف إلى ذلك أن كثيراً من الناس انخرطوا في سلك رجال الدين والمتصوفين ؛ لان هؤلاء كانوا موضع رعاية حكام المماليك ، ظنا منهم أنّ تلك الرعاية تكسبهم رضى العامة(١) . فكثرت تبعاً لذلك المدائح النبوية حتى ضاقت بها الدواوين نذكر على سبيل المثال أن ابن حجلة المغربي نظم في ذلك أربعة دواوين ، وأن ابن سيد الناس نظم ديوان (بشرى اللبيب في ذكرى الحبيب) . وقلما نجد شاعراً من شعراء ذلك العصر بعُد عن هذا الميدان (٢) ، والبوصيري (٣) فارسه ، و(بردته) طليعة هذا الفن ، نقّت المديح من شوائب المطامع الشخصية والمنافرات الجاهلية وابعدته عن المنازعات الطائفية والسياسية ، ونقلته نقلة واسعة المدى إلى أجواء الروح الديني والوجد الصادق . نظم البوصيري قصيدته يستشفع بها إلى الله – تعالى – في أن يعافيه من فالج أصابه فابطل نصفه ، ونام فرأى النبي – صلى الله عليه وسلم – يمسح وجهه بيده المباركة ويُلقي عليه بردة فانتبه فوجد فيه نهضة ، فقام وخرج من بيته (٤) ، ومن هنا عرفت قصيدته هذه بالبردة.

تقع البردة في اثنين وثمانين ومائة بيت ، من بحر البسيط ، وعلى روي الميم المكسورة . استهلّت بالنسيب – على عادة شعراء العرب – توسلا إلى المديح ، ولكنه نسيب يُشعر بالمديح النبوي ، حيث ذكرت فيه المواضع العربية التي كانت لها صلة بحياة الرسول – صلى الله عليه وسلم – ، من ذلك قوله .

---

(١) راجع : السبكي في (معيد النعم ومبيد النقم) ص ٥١ ، ٧٢ .
راجع : مقدمة ابن خلدون ص ١٨٨ .

(٢) راجع : د. محمود رزق سليم عصر سلاطين المماليك / المجلد الثامن ٢٨٤.

(٣) شرف الدين محمد بن سعيد ، شاعر مصري ، توفي سنة سبع وتسعين وستمائة للهجرة (ابن شاكر الكتبي) فوات الوفيات ٢٢/٢ .

(٤) فوات الوفيات ٤١٨/٢ .

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة وأومض البرق في الظلماء من اضم
يالائمي في الهوى العذري معذرة مني اليك ولو انصفت لم تلم
أيحسب الصب أن الحب منكتم مابين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

وتتلو النسيب حكم وامثال في سياسة النفس ، كما في قوله :

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها ان الطعام يقوّى شهوة النهم
والنفس كالطفل ان تهمله شبّ على حبّ الرضاع وان تفطمه ينفطم

ثم يتحول البوصيري إلى المديح ، فيتناول شخصية الرسول – صلى الله عليه وسلم – بما تنطوي عليه من صفات ومعجزات كمعجزة القرآن الكريم ، والاسراء والمعراج . فيقول :

اعيا الورى فهم معناه فليس يرى للقرب والبعد منه غير منفحم
كالشمس تظهر للعينين من بعد صغيرة وتكل الطرف من أمم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وانه خير خلق الله كلهم
أكرم بخلق نبيّ زانه خلق بالحسن مشتمل بالبشر متسم
كالزهر في ترف والبدر في شرف والبحر في كرم والدهر في همم
كانه وهو فرد في جلالته في عسكر حين تلقاه وفي حشم

ويصف آيات الله – تعالى – بالنفع العميم والعطاء الدائم ، وهذا هو سر حيوية القرآن الكريم ، وتفوقه على كل معجزة حسية ، فيقول :

لم تقترن بزمان وهي تخبرنا عن المعاد وعن عاد وعن إرم
دامت لدينا ففاقت كل معجزة من النبيين إذ جاءت ولم تدم

ومن معجزات القرآن الكريم أيضاً فصاحته وبلاغته ، وقد أشار البوصيري إلى ذلك في قوله عن آيات القرآن :

ردت بلاغتها دعوى معارضها رد الغيور يد الجاني عن الحرم

وقال عن الاسراء :

سريت من حرم ليلا إلى حرم كما سرى البدر في داج من الظلم
وبتّ ترقى إلى أن نلت منزلة من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

ولم يغفل بعثة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجهاده، ووقع هذا الجهاد على أعدائه فقال :

راعت قلوب العدا أنباء بعثته كنبأة اجفلت غفلا من الغنم
مازال يلقاهم في كل معترك حتى حكوا بالقنا لحماً على وضم

ووصف جند رسول الله الذين سلحهم الله — تعالى — بالايمان وايدهم بنصر من عنده، فقال :

هم الجبال فسل عنهم مصادمهم ماذا رأى منهم في كل مصطدم
شاكي السلاح لهم سيما تميزهم والورد يمتاز بانسيما من السلم
كانهم في ظهور الخيل نبت ربا من شدة الحزم لامن شدة الحزم
ومن تكن برسول الله نصرته ان تلقه الأسد في آجامها تجم
أحلّ امته في حرز ملّته كالليث حل مع الاشبال في أجم

ويترع البوصيري إلى التصوف في ختام قصيدته ، فيناجي الله — تعالى — طالباً غفرانه ورحمته متوسلا برسوله — صلى الله عليه وسلم — :

ياأكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حدوث الحادث العمم
... ...
يانفس لاتقنطي من زلة عظمت ان الكبائر في الغفران كاللّمم
لعل رحمة ربي حين يقسمها تأتي على حسب العصيان في القسم
يارب واجعل رجائي غير منعكس لديك واجعل حسابي غير منخرم

يمكننا — بعدما سبق — القول في أدبيه البردة انها من القصائد الجيدة ، فقد قامت على فكرة جليلة وعاطفة نبيلة ، واتسمت بالنغمات الشعرية التي تنم عن الصدق ، بالرغم مما أورده فيها من أخبار تتعلق بمولد الرسول ومعجزاته المتعددة ، والتي يساير فيها نزعة ساذجة شاعت في أوساط العامة ، وامتازت البردة برقة الألفاظ ونصاعة العبارة ،وتمتعت بخيال أمد الصور البيانية كالتشبيه والاستعارة بما تحتاج اليه ، وما تضمنته من فنون بديعية كاف لاضفاء ثوب قشيب عليها . كل ذلك جعلها موضع استحسان شعراء المديح فاحتذوها شكلا ومضموناً ، وضمّنها بعضهم وخمسّها وسبّعها، ووضع لها الشروح

وفي هذا ثراء للادب العربي كبير . ولم يكتف قسم من اصحاب المدائح بان ينهجوا نهج البردة، بل زادوا عليه شيئاً حفل به العصر المملوكي وما بعده ، ذلك هو البديع فشكلوا منعطفا في تاريخ المدائح ، وبعبارة اخرى يمكن القول بان المدائح النبوية بعد البردة تشعبت إلى شعبتين : شعبة حافظت على نهج البردة الادبي ، جاعلة المدح غايتها وموضوعها، وشعبة اخرى خرجت على هذا النهج والتزمت نظم الوان البديع على غرار نظم النحو او العلوم الاخرى لقصد الاحاطة وتيسير الحفظ ، وسلكت إلى هذا سبيل المدح ،وعرفت تلك القصائد بالبديعيات.وقبل ان نتكلم عن البديعيات نود ان نواصل مسيرتنا مع بعض المدائح من النوع الاول والتي نظمت في العصور المتأخرة ، ويأتي في مقدمتها قصائد ابن نباته المصري (١) فقد كان من المولعين بالمديح النبوي — عارض لامية كعب في هذا الفن بلامية مطلعها :

ما الطرف بعدكم بالنوم مكحول هذا وكم بيننا من ربعكم ميل

تقع في تسعة وسبعين بيتاً، واخرى همزية مطلعها : —

شجون نحوها العشاق فاءوا وصبّ ما له في الصبر راء

وثالثة رائية جاء فيها :

صحا القلب لولا نسمة تتخطر ولمعة برق بالغضا تتسعر
وذكر جبين المالكية ان بدا هلال الدجى والشيء بالشيء يذكر

... ...

نبيّ له مجد قديم وسؤدد صميم واخبار تجل وتخبر
تحزم جبريل لخدمة وحيه واقبل عيسى بالبشارة يجهر
تهاوى لمأتاه النجوم كانها تشافه بالخد الثري وتعفر

علا عن محاكاة الغمام لفضله وكيف يحاكيه السخديم المسخر
هو البحر فياض الموارد للورى ولكنه العذب الذي لا يكدر

ويشفع ابن نباته الرسول — صلى الله عليه وسلم — ابتغاء الدارين؛ الدنيا؛ وحياته فيها بين ذل وغربة، والآخرة؛ وعزمه اليها مثقل بالذنب، فيقول :

اليك رسول الله مدت مطالبي على انها اضحت على الفور تقصر
خلقت شفيعا للأنام مشفعا فرجواك في الداريين احرى واجدر

(١) راجع المدائح النبوية ص ٢٢٩ .

ولي حالتا دنيا واخرى اراهما يمران بي في عيشة تتمرر
حياة ولكن بين ذل وغربة فلا العز يستجلى ولا البين يقتر
وعزم إلى الاخرى يهم نهوضه ولكنه بالذنب كالظهر موقر

وله قصائد اخرى حافظ فيها على روح الشعر ..

وللشاب الظريف (١) قصيدة مدح يفصح في مستهلها عن حبه للعرب فيقول :

ارض الاحبة من سفح ومن كثب سقاك منهمر الانواء من كثب
قوم هم العرب المحمي جارهم فلا رعى الله الا اوجه العرب
اعز عندي من سمعي ومن بصري ومن فؤادي ومن اهلي ومن نسبي
حياك ياتربة الهادي الشفيع حيا بمنطق الرعد بساد من فم السحب

اما ابن حجة الحموي (٢) فقد أسهم في هذا الغرض بعدة قصائد منها قصيدة «امان الخائف» ومطلعها (٣) :

شدت بكم العشاق لما ترنموا فغنوا وقد طاب المقام وزمزم
وضاع شذاكم بين سلع وحاجر فكان دليل الظاعنين اليكم
وجزتم بواد الجزع فاخضر والتوى على خده بالبنت صدغ منمنم
ولما روى اخبار نشر ثغوركم اراك الحمر جاء الهوى يتنسم

مطلع رقيق حقا ، وابتداء موفق ينبيء بمديح نبوي وذلك بذكر اماكن شهدت حياة الرسول الكريم ـ صلى الله عليه ـ وسلم وآله وصحبه الاخيار .ثم يقول في مدح الرسول وقومه العرب :

فياعرب الوادي المنيع حجابه واعني به قلبي الذي فيه خيموا
رفعتم قبابا نصب عيني ونحوها تجر ذيول الشوق والقلب يجزم
يقولون لي في الحي اين قبابهم ومن هم من السادات قلت هم هم
عريب لهم طرفي خباء مطنب بدمعي وقلبي نارهم حين تضرم
لهم حسب عال ببطحاء مكة لان رسول الله في الاصل منهم

---

(١) هو شمس الدين محمد بن عفيف الدين التلمساني ، شاعر مجيد ، توفي سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجرة ، وأبياته في الديوان ص ٦ .

(٢) تقي الدين علي بن عبدالله صاحب «خزانة الأدب وغاية الأرب» راجع (ذيل كشف الظنون ٤٢٩/٣) .

(٣) خزانة الأدب ص ١٢ .

ويستشفع ابن حجه الرسول صلى الله عليه وسلم . من ذنوب تعاظمت عسى ان يسلم من أذاها :

عسى وقفه او قعده لابن حجه على بابكم يسعى بها وهو محرم
فقد جاء يشكو من ذنوب تعاظمت وقدرك في يوم الشفاعة اعظم
عليك سلام نشره كلما بدا به يتعالى الطيب والمسك يختم

ويسير في خط المدائح كثير من الشعراء المتأخرين ، بل لانكاد نجد شاعرا منهم الا وقد ادلى بدلوه فيها ويمتد هذا الخط حتى العصر الحديث فنجد محمود سامي البارودي (١) يعارض البوصيري بقصيدة تقع في سبعة واربعين واربعمائة بيت وسمها بـ « كشف الغمة في مدح سيد الامة » (٢) مطلعها :

يارائد البرق يمم دارة العلم واحد الغمام إلى حي بذي سلم

ونجد احمد شوقي يعارض البوصيري ايضا بقصيدة وسمها بـ « نهج البردة » (٣) يقول في مستهلها :

ريم على القاع بين البان والعلم احل سفك دمي في الأشهر الحرم
بالاثمي في هواه والهوى قدر لو شفك الوجد لم تعذل ولم تلم
لزمت باب امير الانبياء ومن يمسك بمفتاح باب الله يغتنم
محمد صفوة الباري ورحمته وبغية الله من خلق ومن نسم

ويسترسل في مدح الرسول — صلى الله عليه وسلم — ذاكرا معجزاته — وفي مقدمتها القرآن الكريم — فيقول في فضله وديمومته :

جاء النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بحكيم غير منصرم
شريعة لك فجرت العقول بها عن زاخر بصنوف العلم ملتطم

ويستشفع احمد شوقي الرسول العربي لا لنفسه وانما لقومه (العرب) مما لحقهم من ظلم ومهانة فيتوجه إلى الله تعالى — بقوله :

يارب هبت شعوب من منيتها واستيقظت امم من رقدة العدم
فالطف لاجل رسول العالمين بنا ولا تزد قومه خسفا ولا تسم
يارب احسنت بدء المسلمين به فتمم الفضل وامنح حسن مختتم

(١) الشاعر المصري الشهير ، المتوفى سنة أربع وتسعمائة وألف للهجرة (الاعلام ٤٧/٨) .
(٢) مطبوعة في مطبعة الجريدة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ .
(٣) الشوقيات — الجزء الأول ص ١٨١ — ١٩٠ — ٢٠٨

ذاك هو شوقي الشاعر المطبوع الغني عن اثبات شاعريته في هذا البحث .

واما الشعبه الثانية ، وهي البديعيات فقد كانت منظومات مطولة ، قصدت إلى نظم الوان البديع اللفظية منها والمعنوية — تيسيراً لحفظها والتمثل بها في عصر شاع فيه البديع ، واقبل عليه عامة الناس وخاصتهم ، يدرسونه ويطبقون فنونه في كلامهم وتواليفهم ، قال الصفدي (١) في ذلك : « والبديع كان عند العرب الأوائل يحمل على شاعرية اللغة لايقصده الادباء اذا قصدوا جمله كافيه ولايشعرون به اذا شعروا إنه دخل معهم في بيت تحت قفل قافية ، وانما يقولونه بطباعهم التي هي على الفصاحة مفطورة ، ويأتون به سجيه » . ثم انطوى ذلك العصر واعقبه عصر عنى اهله بالخصائص الحسية والجمالية في مظاهر حياتهم المختلفة ، وربما كان للتقدم الحضاري ولعوامل البيئة والجنس اثر في ذلك . والبديع احد تلك الخصائص الجمالية فهو فنون يصار اليها لقصد تحسين القول وتجميله لذا فقد مالوا اليه والتمسوه بكل سبيل وغالى بعضهم في طلبه حتى جعله غاية تقصر دونها الغايات ولغزا مقفلا واحجيات وهذا ماشار اليه القزويني في قوله (٢) : وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ماحمل صاحبه فرط شغفه بامور ترجع إلى ماله اسم في البديع على ان ينمى انه تكلم ايهم ويقول ليبين ويخيل اليه انه اذا جمع عدة من اقسام البديع في بيت فلا خير ان يقع مما عناه في عمياء وان يوقع السامع من طلبه في خبط عشواء » .

ولم هذا الغلو في طلب البديع ؟ يجيبنا الصفدي بقوله : « لم يتنبه لمحاسنه غير المتأخرين من الشعراء والكتاب ومن تضلع بالعلوم وتطلع في كل باب » (٣) هذا قول احد ادباء ذلك العصر يقر فيه بان البديع ثمرة الثقافة والتفقه بالادب ، وهذا الاعتقاد سرى إلى قسم من النقاد ولون ذوقهم ، فصاروا يقومون العمل الادبي بموجب هذا الذوق البديعي فالعماد الاصفهاني ينظر إلى الشعراء (٤) على اعتبار استخدامهم للبديع ومدى اجادتهم في استعماله وتبارى بعض النقاد في الكشف عن الوان جديدة من البديع ، وادخال الوان ليست في في نظر سواهم منه — فقد جعلوا من (السهولة) و (النزاهة) و (الانسجام) و (التهكم)

---

(١) نص الختام عن التورية والاستخدام ، الورقة ٤ .

(٢) الايضاح ص ٤٠٠ .

(٣) فض الختام / الورقة ٥ .

(٤) راجع الخريدة ١٨٥/٣ ، ١٤٦ ، ٤٩٦/٤ ، ٦٧٢ .

الوانا بديعية — واكثروا من التفريعات في الباب الواحد ، وعدوا الآلات المادية للصنعة الادبية ابوابا بديعية ، حتى ان بعضهم كان يطلق اسم الباب على الشاهد المفرد .وبفعل تلك الدوافع اسرف الكتاب في توشية كتاباتهم بفنون التورية والجناس والطباق والسجع وغير ذلك ، وتابعهم الشعراء ، فاصبح الشعر على يديهم صياغة دقيقة وزخرفا جميلا يضم افانين البديع ، اما معانيه وافكاره فمعادة هزيلة . ثم رفعت الحواجز عند البعض بين الشعر والنثر ، وتحول النثر إلى موسيقى خالصة ، من جراء الامعان في السجع ، وتحول الشعر إلى نثر من جراء اعمال يد الصنعة فيه . والبديعيون غذوا هذا الاتجاه حتى صار مذهبا متبعا مفضلا ، ومن هؤلاء اصحاب البديعيات ، اتخذوا من البديع مذهبا للمدائح النبوية ، واوغلوا فيه حتى غطى على المديح وروحه الشعري واختلط الامر على الناظر في البديعيات هل انهم ارادوا بها المدح فسلكوا اليه سبيل البديع؟ ام ارادوا البديع فنهجوا اليه نهج المديح؟ إني ارجح الامر الثاني ويسعفني في ذلك قول شيخ البديعيين صفي الدين الحلي في بيان موجب نظم بديعيته : « اردت ان ألف كتابا يحيط بجل انواع البديع فعرت لي علة طالت مدتها واشتدت شدتها ، فاتفق اني رايت في منامي رسالة من النبي — صلى الله عليه وسلم — يتقاضاني المدح ويعدني البره ، فعدلت عن تأليف ذلك الكتاب إلى نظم قصيدة تجمع اشتات البديع وتتطرز بمدح مجده الرفيع » (١) أرايت كيف ان الاصل في فكرة البديعية هو الاحاطة بانواع البديع ؟ .

والبديعات غالباً ما تكون من بحر البسيط ، وروى الميم المكسورة ،يتضمن كل بيت من ابياتها فنا من فنون البديع ، وقد اوغل بعض اصحاب البديعيات فالتزم التورية باسم الفن البديعي في البيت ذاته . غير ان هذه الموا صفات لاتطرد بالضرورة في كل بديعية فقد نجد بعضها من بحر وروي مخالف وبعضها قد نظم في غير الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كأن يكون في النبي عيسى — عليه السلام — او ممدوح آخر ، ونجد بعضها قد نظم في غرض آخر غير المديح. والبديعيات كثيرة ، منها ماهو مطبوع ومنها ماهو مخطوط ومنها ماهو مجرد ومنها ماهو مشروح وأقدمها بديعية الاربلي(٢)نظمت في القرن السابع الهجرى ، وبلغ عدد

---

(١) الديوان ص ٤٦٦ .

(٢) علي بن عثمان أمين الدين الأربلي ، توفي في مصر سنة سبعين وستمائة للهجرة (فوات الوفيات ١١٨/٢)

ابياتها ستة وثلاثين من بحر الخفيف وعلى روي اللام المكسورة ، ابتدأت بالغزل وانتهت بمدح شخصية (على)صرح بذكر اسمها وقد اشتمل كل بيت منها على مثال لنوع بديعي كتب إلى جانب البيت ، وهذه ابيات منها (١) :

بعـــض هـــذا الـــدلال والإدلال
حال بالهجر والتجنب حالى (الجناس اللفظي)

حـــرتُ اذ حُـــزتَ ربع قلبـــي واذلا
لي صبراً أكثرت مـــن اذلالي (الجناس الخطي)

رق يـــاقـــاسى الفـــؤاد لأجفـــا
ن قصار أســـرى ليال طوال (الطباق)

شارحـــات بـــدمعهـــا مجمـــع البحـــ
ـــرين في حب مجمع الامثال (الاستعارة)

نفـــت النـــوم في هـــواك قصـــاصـــا
حيث أدني منهـا خداع الخيال (المقابلة)

أنا بين الـرجـاء والخوف في احـــيـــ
ـــاء مابين صحـــة واعتـلال (التفسير)

لست انفـــك في هـــواك ملـــومـــاً
في معـــاد يســـومني ومزال (التقسيم)

عمـــري ينقضـــي وايامـــي الابـــا
م بالهجـــر والليالي الليـــالي (الاشارة)

طلـــب دونـــه منـــال الثـــريـا
وهوى دونـــه زوال الجبال (الغلو)

خنت عهـدي فـدام وجـدي فهـــل نكبـ
ـــت صدى يـومـاً بطيـب الـوصال (الترصيع)

لك الحـــاظ مقلتيـــن شبـــاهـــا
كالحسام الهندي غـــبّ الصقال (الايغال)

---

(١) فوات الوفيات ٢/١١٨ – ١٢٠ .

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

قائمة المراجع والمصادر

الاعلام — خير الدين الزركلي

الطبعة الثالثة عن طبعة القاهرة ١٩٥٤م

الاغاني — الاصفهاني

نشرة دار الثقافة — بيروت ،سنة ١٩٥٧ م

الايضاح — الخطيب القزويني

طبعة مكتبة المثنى — بغداد

بديعيات الآثاري —

تحقيق هلال ناجي — طبع وزارة الاوقاف — بغداد ١٩٧٧م

بغية الوعاة — السيوطي، طبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٤ م

حلية العقد البديع في مدح النبي الشفيع — قاسم البكره جي

المطبعة العزيزية — حلب ،١٢٩٣هـ

خريدة القصر وجريدة العصر — العماد الاصفهاني

تحقيق محمد بهجة الاثري، من منشورات وزارة الاعلام — بغداد،١٩٧٦م

خزانة الادب — ابن حجة الحموي

طبعة دار القاموس الحديث — بيروت

الدرر الكامنة — ابن حجر العسقلاني

تحقيق محمد سيد جاد الحق — توزيع دار الكتب الحديثة بالقاهرة

ديوان حسان بن ثابت —

طبعة — دار صادر — بيروت، سنة ١٩٦٦م

ديوان الشاب الظريف

تحقيق شاكر هادي — مطبعة النجف ١٩٦٧م

ديوان صفي الدين الحلي

مطبعة الاداب — بغداد ١٨٩٢ م

الذريعة إلى تصانيف الشيعة – اغا بزرك الطهراني – مطبعة الغرى بالنجف سنة ١٣٥٥هـ
ذيل كشف الظنون – محمد شرف بالتقايا
نشر مكتبة المثنى – بغداد
السلوك إلى معرفة دول الملوك – المقريزي
تحقيق د. محمد مصطفى زيادة – طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤م
شذرات الذهب – ابن العماد الحنبلي
– مطبعة القدسي بمصر سنة ١٣٥٠ هـ
شعر دعبل الخزاعي – د. عبدالكريم الاشتر
طبع المجمع العلمي العربي بدمشق
الشوقيات
مطبعة الاستقامة بمصر – توزيع المكتبة التجارية الكبرى
الصبغ البديعي في اللغة العربية – د. أحمد ابراهيم موسى
نشرة دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٩ م
الضوء اللامع – السخاوي
نشر دار مكتبة الحياة – بيروت
عصر سلاطين المماليك – د. محمود رزق سليم. –
طبع ونشر مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٦٢ م
الفتح المبين في مدح الامين – السيدة عائشة الباعونية
منشور على حاشية (خزانة الأدب) المذكور آنفاً
فض الختام عن التورية والاستخدام – صلاح الدين الصفدي
مخطوط مصوّر عن أصل محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٢٦ بلاغة
فوات الوفيات – ابن شاكر الكتبي
تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، نشرة مكتبة النهضة المصرية

المدائح النبوية في الادب العربي – د: زكي مبارك
طبعة دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٣٥ م
معيد النعم ومبيد النقم – عبدالوهاب السبكي
نشرة جامعة الازهر، القاهرة، ١٣٦٧هـ
نفح الطيب – المقّري
تحقيق احسان عباس، طبعة دار صادر – بيروت ١٩٦٨م
نفحات الازهار على نسمات الاسحار – عبدالغني النابلسي
هاشميات الكميت. مطبعة الموسوعات ، بمصر ، طبع على نفقة توفيق النابلسي الازهري:

شخصية الرسول الكريم في شعر السيرة النبوية لابن هشام •

الدكتور علي محمد المبوبي